الزواج عند قبيلة البرانس

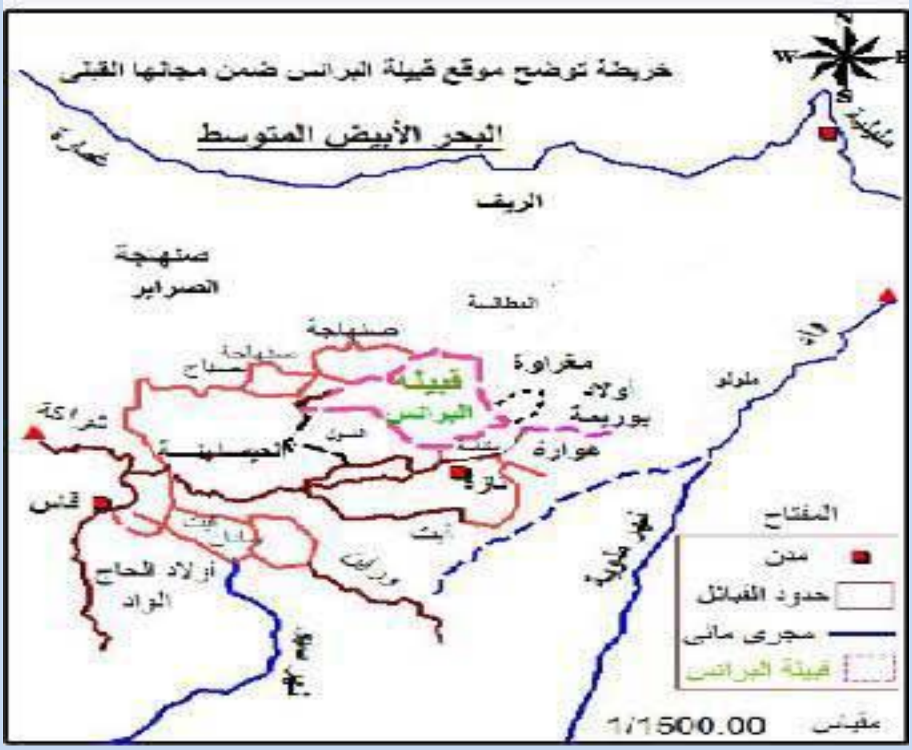

وظائف الفعل وطقوس الاحتفال

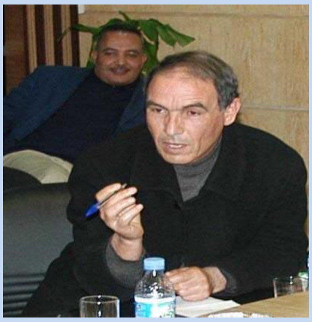

محمد الخدادي : باحث وكاتب صحفي

تندرج المصاهرة عند البرانس في السياق العام للبنية الاجتماعية لدى الأمازيغ، وتخضع لاعتبارات مختلفة، يحكمها في العمق العامل الاقتصادي والاجتماعي.

على هدا الأساس، تستند المحاولة التالية حول المصاهرة والزواج إلى علاقات "ما قبل رأسمالية"، قبل أن تخترق البنية العامة عوامل جديدة، أثرت على بعض خصائصها.

وتبقى الحاجة قائمة للتدقيق والتعميق بشأن هذه الخطاطة، من خلال مصادر ومراجع موثقة، وروايات شفهية مسترسلة وموثوقة.

عموما، تحصل المصاهرة في اتجاه أفقي، أي بين فئات اجتماعية متقاربة في المستوى المادي والاعتباري، من داخل العائلة الموسعة أو من العشيرة ، (L'ENDOGAMIE) ،مع وجود رواسب تقوم على صلة قرابة دم حقيقية أو مفترضة، كما تحصل المصاهرة من خارج العائلة القريبة والبعيدة (L'EXOGAMIE).

يمتد الزواج الداخلي بين الأقارب من الدائرة المباشرة لجهة الأب والأم، في الأعمام والأخوال إلى الفروع البعيدة في العائلة بالمعنى الواسع.

يتحكم في هذه القاعدة العامل الاقتصادي والاجتماعي من باب الحفاظ على ثروة العائلة أو العشيرة وعدم تعريضها للتقسيم من خلال الإرث.

كما عرف نوع من المبادلة بين الأسر في الزواج للغرض نفسه، ومن باب الاقتصاد في التكاليف المادية.

إلا أن عوامل أخرى، ترتبط أيضا بالحفاظ على الثروة من زاوية أخرى، قد تتدخل لكسر هذه القاعدة، وخاصة عامل الأمن، إذ يلجأ شخص يتوفر على قدر من الثروة ويفتقر إلى قوة الحَميّة والحماية إلى مصاهرة أفراد من عائلة (أو عائلات) أدنى منه مرتبة اجتماعية، للاستقواء بهم أمام المنافسين والخصوم، وحتى النيابة عنه في القتال خلال النزاعات المسلحة مع أطراف خارجية، وكذلك في مواجهة التوغل الاستعماري الفرنسي، وفي أداء خدمات السخرة أثناء فترة الحماية.

ويحصل الإدماج بواسطة الزواج للشخص الوافد إلى المنطقة، إما نازحا بسبب الفقر، أو هاربا من ثأر، أو مبعدا بمقتضى حكم لهيئة بولرباع بعد جريمة قتل (خارَج طْليب، بالتعبير المستعمل في هذه الحالة)، أو لفقيه باحث عن مسجد للمشارطة فيه. (1)

كما تحكم العامل الديني في المصاهرة، إذ تميزت الأسر المعروفة بصفة "الشرفاء"، المتحدرة افتراضا من نسل النبي، بالحرص على الزواج الداخلي، حفاظا على "نقاء النسب"، خاصة من جهة النساء، فأجازوا ومارسوا تزويج أبنائهم من فتيات برنوسيات، بينما ظلوا يمانعون في "إعطاء بناتهم للبرانس" (هذا هو التعبير المعتمد في هذه الحالات)، إلا إذا تعلق الأمر بطالب من حفظة القرآن، رغم أنهم يعتبرون البرانس أخوالا لهم، استنادا إلى زواج جدهم المفترض، إدريس الأول، من كنزة بنت عبد الحميد الأَوْرَبي (الوربي).

وعُرف الزواج بالصدقة لفائدة فئة حفظة القرآن، بأن يهب أحدهم ابنته لشاب فقيه "على وجه القرآن"، دون شروط ولا تكاليف، باستثناء صداق رمزي، قد يتدبره والد الفتاة بنفسه.

وساد تعدد الزوجات عند البرانس لأسباب مختلفة، ترتبط بعجز الزوجة في سن مبكرة نسبيا، بسبب تعدد الولادات والأمراض، فيلجأ الزوج إلى الزواج بثانية، أو من أجل تكثيف الروابط وتوفير الأمن في حالات السعي إلى الاستقواء. كما شكل التعدد لدى الميسورين عنوانا للثروة والجاه والفحولة، إذ يقال "ما أيَقْنَع بمرا وحدة بين الناس، غِي الخمّاس أو النعّاس". وقد يصل التعدد أحيانا إلى الحد الأقصى، بأربع زوجات.

وقد يحدث التعدد عند الفشل في استمرار آلية التبادل بالأخوات، فعند تطليق زوجة لعدم الإنجاب، قد يعمد شقيقها، المتزوج بشقيقة طليقها، إلى الزواج بأخرى، وتعريض الأولى للإهمال.

كما أدت الوفيات إلى التعدد، بزواج الأخ من أرملة شقيقه المتوفى، لاحتضان أبنائه اليتامى والحفاظ على ممتلكات العائلة وقوتها البشرية.

عند الزواج من خارج المجال الجغرافي والبشري، تهيمن الهوية الشمولية على الهوية الذاتية في توصيف المرأة الوافدة، فتشتهر في محيطها الجديد بنسبها إلى الفرقة أو الربع أو القبيلة الأصلية. ففي اولاد جرو (أجْراو، بالصيغة الأمازيغية) من رُبْع بني فقوص، يختفي الاسم الشخصي والعائلي للزوجة "البرّانية"، أمام صفات النسب إلى الأصل، فتصبح: الترابيبة، الفتحية، لحبايلية، الحدّاوية (من نفس الربع)، أو العبُّوية، الحموّية، المعَادية، التايناستية، الوربية (من ربع وربة)، الطايفية (ربع الطايفة)، البوعلاية (ربع بني بوعلا)،

وفي دائرة أبعد، يرتفع النسب إلى مستوى القبيلة: البكّارية، الغياتية، التسُولية، المغراوية، الورواينية، الصنهاجية (وهي قبائل مجاورة للبرانس).

كما تتحدد الهوية بعامل اللغة، فيقال "الشلحة" في تعريف المرأة الوافدة من قبيلة كَزناية، الناطقة بتريفيت، والمحاذية لقبيلة البرانس من جهة الشرق، أو من قبيلة بني وراين، بالأطلس المتوسط.

في إطار هذه المحددات العامة، تتدخل وتتداخل عناصر وعوامل في اختيار زوجة المستقبل، منها سيرة عائلة الفتاة وأهلها من حيث الأخلاق والمروءة والشجاعة، والكرم، (يقال: اخْتَارْ خْوالْ وْلادَكْ فَ السّوق)، بالإضافة إلى الصفات والمواصفات الجسدية، والقدرة على إنجاز أشغال البيت والمساهمة في تنمية ثروة الأسرة، فضلا عن حالات حب وعلاقة غرامية سابقة، تضطر الأسرتان إلى ترسيمها بالزواج.

رغم وجود المنطقة في غالب الأحيان ضمن مجال ما عرف ببلاد السيبة، يبدو أن الزواج خضع للتوثيق في وقت مبكر نسبيا، بعد بداية تعريب البرانس في عهد المرينيين، بداية من القرن الثالث عشر للميلاد.

ومنذ القرن التاسع عشر على الأقل، وبفضل القرب نسبيا من مراكز التعليم الديني بفاس وبلاد جبالة، اشتهرت مناطق، مثل الكَوزات واولاد حمّو (ربع وربة)، وبوهلّيل (ربع الطايفة)، بوجود عدول يتنقلون بين الأسواق، ويوثقون عقود الزواج ومليكة الأرض. وفي بعض المناطق النائية، تولى إمام المسجد هذه المهمة، مع احتمال وجود استثناءات للزواج بالشهود والفاتحة.

تقام حفلات الزفاف بين شهري غشت وشتنبر، بعد جمع المحاصيل الزراعية، وقبل الشروع في الاستعداد للموسم الفلاحي الموالي. وقبيل العرس، تنظم لصاحبه "توازا" لجلب الحطب من أجل الطهي، كما تساعد الجارات والقريبات والدة العريس في تنظيف المنزل وطلاء الجدران بالجير، وفي تحضير القمح وطحنه يدويا، وغربلته وتحضير "الطْعام" (الكسكس) وتجفيفه، ثم إعداد الخبز عشية بداية الحفل.

تشهر حفلات الزواج "المكبّرة" بفرق الغناء من الرجال والنساء، كل على حدة، كما تقام بالخيّالة والطبل والغيطة، فضلا عن الجانب الديني، بحضور حفظة القرآن.

وخلال كل مراحل عقد المصاهرة والتحضير للزواج، يلتقي الرجال والنساء في مجالس وفضاءات منفصلة، لكن دون فصل ممنهج بين الجنسين.

تتضمن طقوس الزواج رموزا كثيفة، تحيل على معتقدات شعبية راسخة في الوعي الجماعي، وفي لحظة أخذ العروس من بيت الأب إلى بيت الزوج يتركز مشهد انتزاع درامي، تتخلله طقوس تعبر عن مقاومة ورفض من طرف الأسرة والعشيرة التفريط في بنتها وتسليمها لعشيرة أخرى، من خلال احتجاز شيء من أغراضها، والتشويش على رحيلها، بما يحيل على الجذور البعيدة لعلاقات التوتر والصراع الأفقي بين الجماعات والأحلاف داخل القبيلة.

يقابل هذه اللحظة طقس "حَبّان الرّاسْ"، الذي يعتبر بمثابة اعتذار عن هذا السلب، وصلحا بين الطرفين، بواسطة دم الذبيحة.

يحمل العريس صفة "مولاي السلطان"، وكلمة السلطان، بمعنى المَلِك، دخلت إلى المحيط المخزني بالمغرب في عهد السعديين (1554-1659)، بتأثير من الأتراك العثمانيين، خاصة في عهد أحمد المنصور الذهبي (1578-1603)، الذي كانت والدته من البلاط العثماني، وعاش في العاصمة العثمانية، إسطنبول، مدة 16 سنة، إذ هربت به طفلا إلى هناك عند أخواله، خوفا من قتله من طرف أعمامه، في إطار الصراع على الحكم.

استقر مصطلح السلطان لقبا لحكام السلالات المتعاقبة في المغرب، وليس صدفة أن يمتد استعماله إلى مجال الزواج، من باب التقليد ومحاكاة وظيفة السلطان الفعلي، فالعريس ينتقل إلى مرحلة جديدة، تقترن بالمسؤولية والسلطة تجاه الزوجة والأبناء، ويصبح له صوت داخل الأسرة والعشيرة والجماعة، مع ما يرافق الإعلان عن بداية هذا التحول من أفعال ترتبط في الأصل بسلطان المخزن خلال "الحرْكات"، من تغريم للقبيلة (لغرامة)، وإطعامها له ولمرافقيه ولجيوشه ولخيولهم (2).

العرس هو قمة الاحتفال، ويسمي أيضا "الفرْح"، كمناسبة للالتقاء والاحتفال بشكل تلقائي، دون دعوة رسمية، إذ يكون خبره انتشر منذ مدة، وتأهب المهتمون لحضور المناسبة، خاصة من الرجال والشباب واليافعين، بينما تكون النساء والفتيات مدعوات، باستثناء القريبات والجارات، اللواتي يحضرن تلقائيا.

من هذا المنطلق، وقبل بداية الحفل، يحرص رب الأسرة على الترحيب بجميع الحاضرين، كبارا وصغارا، ويثير روابط القرابة والقبيلة والعامل الديني من أجل ضمان توفير الشروط الملائمة لنجاح الحفل.

في سياق الاعتقاد العام لدى المغاربة بوجود قوى غيبية يمكن تسخيرها بواسطة أعمال الشعوذة، وغياب أي معرفة بفيزيولوجيا الأعضاء التناسلية، وانعدام التجربة الجنسية، يفسر الفشل في أول اتصال حميمي بين الرجل والمرأة بـ"الثْقافْ" و"التصْفيح".

"التقاف" من الثِّقاف (فعل ثقف يعني ربط)، ينسب إلى عمل سحري من فعل "فقيه" يكتب تميمة، أو امرأة سحّارة، تخطط عملا يدويا، لجعل عضو الذكورة عاجزا عن الانتصاب (التقاف)، أو المهبل رافضا للإيلاج، وفي هذه الحالة تعتبر الفتاة "مْصَفْحَة"، بينما يتعلق الأمر بحالة طبية معروفة بالتشنج المهبلي، الناتج عن صدمة الخوف من الاتصال الجنسي.

وتمارس أعمال الشعوذة كتابيا أو بوصفات متداولة، غالبا ما تقوم على تلاوة تمائم على خيط من ملابس العريس أو شعرة من جسده، ووضعها في طريقه كي يتخطاها.

بهذه الحمولة الثقافية، مقرونة بغياب التجربة، وضغط المحيط العائلي والخوف من الإخفاق، يكون الفشل شبه مؤكد.

ولتفادي هذا المآل، يلجأ البعض إلى إجراء وقائي استباقي قبيل العرس، بواسطة "حجاب". وبعد الفشل الأول، قد تستقيم الأمور خلال بضعة أيام، بفعل استئناس الطرفين ببعضهما وزوال الخوف والضغط، وإذا استمر الفشل طويلا، يصبح ضروريا اللجوء إلى "فقيه" أو امرأة مشهود لهما بـ"القدرة على إبطال التقاف".

إذا كان الخوف من "التقاف" يشكل عاملا مسببا للفشل، فإن الاعتقاد في مفعول العمل الوقائي والإبطال يمنح الشخص ثقة في النفس، فيتجاوز الفشل، بما يزيد في ترسيخ الإيمان بمفعول أعمال الشعوذة.

مقابل اختبار الفحولة لدى العريس، يعتبر غشاء البكارة عنوانا للشرف لدى العروس، وهنا أيضا قد يؤدي غياب المعرفة إلى صدمات ومآس، فقد يكون غشاء البكارة رهيفا، ولا ينتج عن تمزقه نزول دم، ما قد ينتهي بإعادة الفتاة إلى أهلها، باعتبارها غير بكر، كما ينص على ذلك "عقد النكاح".

تقام احتفالات الأعراس بفرق الفن الغنائي المعروف محليا بالغيوان، ويسمي أيضا "لفراجة" (من الفرجة، والممارس له فرايجي، والجمع فرايجية). وتصنف بعض الدراسات هذا الفن، المنتشر لدى قبائل البرانس والتول/ التسول والحياينة، ضمن "أحيدوس" المعروف في الأطلس المتوسط، إذ يشترك معه في رقصات تسمى أيضا أحيدوس عند البرانس.

وإلى حدود منتصف سبعينيات القرن الماضي، ظل الغيوان يمارس في إطار الهواية، وعلاقات الترابط والتضامن، كمساهمة من "الفرايجية" في "تكبير الفرح"، ومناسبة لإبراز قدراتهم في فن القول.

تكتمل طقوس الزواج بـ"حبان الراس"، وهو بمثابة صلح، ومدخل ضروري كي يتمكن الزوج لاحقا من الالتقاء بوالدي زوجته والتعامل معهما بشكل طبيعي، في إحالة على الجذور العميقة لعلاقة التوتر والصراعات الدامية في القبيلة، التي تسوى بالصلح و"العار" بواسطة دم الذبيحة.

الـدم وسلطـة الأنـثى/الأم

تبرز المكانة المتميزة والدور الكبير للأم والأنثى في العديد من محطات الطقوس المرتبطة بانفصال الابن عنها، وانتقاله من مرحلة الطفولة والمراهقة إلى عالم الكبار. فللأم دور حاسم في اختيار "عروستها" المقبلة، إذ يفترض أن تتعايش معها طيلة الحياة، وهي التي ستؤتمن على ابنها، كما تقاس القيمة المعنوية للعروس بمؤهلات والدتها، فكلما كانت الأم مقتدرة، انعكس ذلك إيجابيا على الابنة (يقال: مُومُّو على مُّو).

ويمتد هذا البعد عبر رموز أخرى مرتبطة بالأنثى، بحمل العروس إلى بيت العريس على ظهر فرس (عودة)، كرمز للخصوبة والنبل، واستحضار الأم في بداية العرس، وطقوس تؤديها أم العريس ليلة الزفاف، إذ تحزم غربالا على ظهرها في جهة الحوض، على مستوى الرحم، مكان الخصوبة، وتتنقل به في أرجاء البيت، من باب الاعتقاد بأن ما قد يدبر من أعمال شريرة ضد فحولة الابن وخصوبته، سيغربل ويسقط إلى الأرض من ثقوب الغربال، ويدوسه الحاضرون، ولن ينال من العريس.

ولا ينزل الغربال من ظهر الأم، إلا بعد نزول الدم من غشاء البكارة لدى العروس.

تخصص ولائم النهار للمدعوين من النساء والرجال، الذين يحملون هدايا (سكر، رأس غنم، نقود، بيض...)، كما يحضر حفظة القرآن (الطلبة)، ما يجعل المناسبة تدخل في نطاق المقدس، مقابل الليل، الذي يخصص للاحتفال.

الهـضـرة

تصطحب الأم ابنتها في سن الزواج (العزبة) إلى حفلات الجيران والأقارب، كي تقع عليها عيون النساء الباحثات عن عرائس لأبنائهن.

وقد تتولى المهمة امرأة ذات تجربة وخبرة، تزور المرشحة للتعرف على مواصفاتها ومؤهلاتها، بإخضاعها لاختبارات غير مباشرة، كأن تتظاهر بأنها اشتهت أكلة خاصة، وتطلب منها أن تعدها لها (مفروق، خرينكَو...)، وتهرش رأسها، ثم تطلب منها أن تمشط لها شعرها وتنظفه، وأن تساعدها في غزل صوف، تكون أحضرته معها...

وبما أن الزواج يحصل عادة ضمن مجال جغرافي وبشري محدود، فإن الشاب والفتاة يكونان على معرفة ببعضهما البعض، من خلال اللقاء أثناء رعي الماشية وأشغال الفلاحة، وفي مصادر الماء.

بعد استقرار القرار، وبعد أن تحصل والدة الشاب على ما يكفي من المعطيات حول مشروع "عروستها"، تتوجه رفقة والده، حاملين قالبا من السكر (أو أكثر حسب الطاقة) إلى بيت الفتاة لجس النبض وطلب المصاهرة (3).

تسمى هذه الخطوة التمهيدية "الهضرة"، أي الكلام في موضوع الزواج، ولتفادي الإحراج، لا يعبر أهل الفتاة في الحين عن موقف واضح، فإن حصلت الموافقة، احتفظت الأسرة بالسكر، وإلا فإنهم يرجعونه للزوار في نهاية الزيارة.

بعد الاتفاق المبدئي، يلتقي الطرفان، عادة في مكان محايد، في السوق أو في المسجد، بحضور إمام المسجد وشخص له مكانة متميزة في "الجماعة"، وقدر من الكاريزما، يكون عادة "شريفا"، من أجل تقريب المواقف والاتفاق على الصداق وجهاز العروس (حُورت الكلمة إلى الزهاج)، وعدد الذبائح، وكميات الزيت والسكر والدقيق المطلوبة من والد العريس.

تقليديا، كان "الزهاج" يشمل الحلي (أساور من فضة، أقراط من ذهب، وأحيانا تغليف سن أو أكثر بالذهب)، وفراش بيت الزوجية (حنبل، بطانية، حصير، حايك، تليس...)، والملابس (قشاب، ايزار، سبنية، سروال، شربيل...) بالإضافة الى أدوات الاستعمال اليومي في الطبخ وجلب الماء والحطب (بَرْمَة، رْحى، قربة، سطل، فأس...) بهدف ضمان استقلال نسبي للزوجة الجديدة في بيت عائلة ممتدة.
وقد يشمل الاتفاق عِجلة أو شاة للكسب، وتسجل كل هذه الأغراض ملكية للعروس (4).

الخْطَابة/الذبيحـة

في هذه الخطوة، يعلن رسميا عن المصاهرة ومشروع الزواج، ويحضر أهل العريس إلى بيت العروس بذبيحة، تقام بها وليمة مصغرة للأقارب والجيران. وفي جميع المراحل، لا يحضر العريس إلى بيت أهل العروس.
تسمى هذه المناسبة أيضا "الدبيحة"، مستمدة من رأس الماشية الذي يذبح للوليمة، بما يرمز إليه الدم في الثقافة الشعبية من روابط القرابة، والتضحية، وإقامة أو "رمي العار".
وتحت ضغط الإكراهات المادية، قد تدمج "لخطابة" و"لعشا" في مناسبة واحدة، فيقال "خطابة وعشا"، وكذلك الشأن بالنسبة إلى "لبدو" "والعرس".

لَبــدو

يتعلق الأمر ببداية مراسم حفل الزفاف في بيت العريس (وكذلك العروس)، ويقام عادة ليلة الخميس، تيمنا بيوم الجمعة. فبعد منتصف النهار، تنطلق "فراجة" فرقة النساء إلى ما بعد المغرب، ثم تبدأ "فراجة" فرقة الرجال لبعض الوقت، في انتظار توافد الزوار والمتفرجين، للشروع في طقوس "الحنا" و"لغرامة".

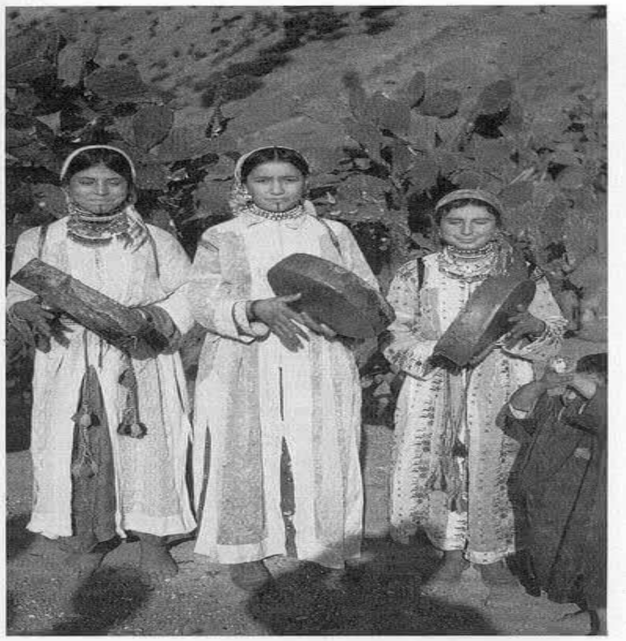

Arqiya's bridesmaids

يستقر المتفرجون من الدوار والدواوير المجاورة فوق سطح المنزل، جلوسا ووقوفا، ليطلوا على وسط المنزل (لمراح)، الذي يخصص جزء منه للنساء، وقسم آخر للرجال المدعوين من أقارب الأسرة، أو من ذوي ميزة خاصة (عون السلطة، المعلم، الممرض، أعيان...).
في هذه المرحلة، يصبح العريس يحمل صفة "مولاي السلطان"، ويختار لنفسه "وزيرا"، يكون عادة هو صديقه المقرب، يرافقه أثناء كل المراحل المقبلة، ويقيم حراسة مشددة على كل أغراضه ولوازمه، خوفا من استعمالها في أغراض الشعوذة (التقاف). وبعد أن يغتسل جيدا، يختلي مع

الوزير في غرفة، وبمساعدة شخص ذي خبرة، يُزين بزي "السلطنة" الأبيض، وهو بلغة، وسروال بلدي، وقميص طويل، فوقه جلباب وسلهام، وسبنية باللون الأحمر، تلف حول الرأس فوق القب، ويسدل جزء منها على الوجه.

عندما يصبح "مولاي السلطان" جاهزا، يحمله الوزير بين ذراعيه إلى "لمراح" (وسط البيت) ويجلسه على فراش أعد لهذا الغرض، خلف صينية فوقها آنية الحناء (زْلافة)، وبيضة وقالب سكر، ودملج من الفضة، وشمعة مضيئة، بالإضافة إلى صينية أخرى مغطاة بسبنية، توضع فيها مداخيل "لغرامة".

ترمز البيضة إلى السر والستر، من باب الوقاية من أعمال السحر، والفضة إلى النقاء والصبر والصلابة، والسكر إلى القبول.

تنطلق الحناء بطقوس محددة، يبدأها الفرايجية بالانقسام إلى مجموعتين حول العريس، يرددون على إيقاع الدفوف مقطوعات خاصة بالمناسبة:

باسم الله أَفْضايَلْ باسم الله، والشيطان خزاه الله...

مَدْ يَدك يا خَيي مَد يدك للحنا، والحنا جاتْ مَ الجَنة....

قاللّكم السلطان صبْروا عليا، حتى نشاور يَمّا ترضي عليا...

(إذا كانت والدة العريس متوفاة، يقال: قاللّكم السلطان صبروا عليا، وراها يَمّا راضية عليا).

وسط زغاريد النساء المتموجة، الصادرة من الحلق على الطريقة البرنوسية المتميزة (وليس باللسان)، تتولى فتاة طلاء كفي العريس بالحناء، ثم تنطلق "لغرامة"، أو "الزلافة" .

يتولى تنظيم هذه العملية شخص مختص بهذه المهمة، قد يكون هو البرّاح الرسمي، الذي يبلغ الناس في الأسواق تعليمات السلطة، ويخبر عن ضياع دواب أو أغراض من أصحابها .

تنطلق "لغرامة/الزلافة" بدعوة البراح لأقارب العريس، نساء ورجالا، من أجل افتتاح التبرع، ثم الأصدقاء والجيران وبقية المدعوين والحاضرين (أفايَنْكُم أحْبابْ مولاي السلطان، أخوتو وَخْوَتاتو، وَعْمامو وَعْمَماتو، وَخْوالو وَخْوالتاتو، وبْني عَمو، وجيرانو وصْحابو؟!).

قد يكون البراح من فرقة الفرايجية، فيستعمل تقنيات القول وقاموسه الغني في مدح المتبرع والرفع من شأنه وشأن أسرته، لإذكاء الحماس والمنافسة من أجل التبرع، وكلما كان مبلغ التبرع مرتفعا، زادت درجة الإشادة بصاحبه.

ومن صيغ الإشادة المأثورة في هذا المجال: هاذي هْدية من عَنْدْ فْلان لَفْلاني، لَهْلالي الظْريف، الفَحْشوش، مْهرّد لَهْموم، الضاحك مْسَلكْ ليّام، سهّار الليل، كَعّاد الميل بْلا جْميل. ذْراعْ ليمَن، يَزْطَمْ عْلى الشْطَبْ ويْقول رْطَب. ابّاه سبع ويَماه لْبية ، ايلا هَدْ يَخلع، وإيلا ضْرَبْ يَوْجَعْ... ثم يعلن عن مبلغ الهدية، وينتظر المتبرع الموالي.

كما يعرف البراح كيف يستدرج النساء للإكثار من الزغاريد، بختم السرد بالقول "فْ خاطَرْ جميع الحاضرين، اللِي فَ لَمْراح واللِي عْلى السْطاحْ، واللِي ما زَغْرْتَتْ عليه، يَتْهَرّس عْلى راسَها فرّاحْ).

في حالة امرأة ترفض الإعلان عن نفسها، يلجأ إلى التعميم والتلميح (هاذي هْدية من عند فلانة لفلانية، الحُرة زينة السمية، اللي ابّاها سبع وامها لبية).

في النهاية، يعد شخص جالس حول صينية "الزْلافَة" حصيلة المساهمات، فيعلن البراح عنها، ويشكر الحاضرين، متمنيا لقاءات أخرى في أعراسهم.

قبل استئناف الفراجة، تنطلق المنافسة بين العُزّاب حول الحناء، مقابل مبالغ مالية للفتاة التي تتولى هذه المهمة، وهي نفسها التي خضبت كفي العريس في بداية الحفل.

ينتهي الطقس بـ"هروب" العريس تحت حماية الوزير وصيحات الرجال وزغاريد النساء، وضربات بعض الشبان.

الحنّـــا

غداة ليلة "البدو"، تبدأ طقوس الحنا وتستمر أسبوعا أو أكثر حسب ظروف عائلة العريس، وعدد المستضيفين له من أجل "الحنا".

يلبس العريس ملابس "لَبْدو"، وهي سلهام فوق جلباب أبيضين، وسبنية فوق قب الجلباب المسدل على الوجه، وحمالة تحيط بالكتفين والصدر، وبلغة بيضاء.

يمنع على العريس خلال هذه المدة أن يسير راجلا، كي لا يتخطى ما قد يكون وضع في طريقه من أعمال، فيخصص للمناسبة حصان بعُدة التبوريدة، يستعار لهذا الغرض، إذا لم يكن متوفرا لدى الأسرة، يمتطيه العريس، مرفقا بالوزير، الذي يمسك بلجام الحصان ويقوده، وفرقة الفرايجية، على إيقاع الدفوف والغناء، وبعض المرافقين. وعلى امتداد الطريق، تخرج النساء والفتيات والأطفال والمراهقون للاستمتاع بالمشهد، ما يحفز الفرايجية على ارتجال قصائد (زرعات) في السياق.

عند الوصول إلى بيت "الحنا"، يقام شوط من الفراجة في الساحة، ثم يحمل العريس من طرف الوزير إلى الداخل، ويستضاف الموكب، وتخضب كفا العريس بالحناء بشكل رمزي، على غرار ما حصل ليلة "لبدو".

كما تحصل منافسة حول "شراء الحنا"، بالمزايدة بين المتزوجين (لَكَواشَشْ) والعزاب، وسط زغاريد التشيع، وقد تخرق معادلة الفصل بين الطرفين، لاعتبارات الجاه والسمعة، من طرف أب يمرر مبلغا ماليا خفية لابنه كي يربح الرهان.

لعْشـــا

تستمد هذه المحطة تسميتها من وجبة العشاء، وفيها تحمل أسرة العريس إلى بيت العروس ما سبق الاتفاق بشأنه من ذبائح ومواد غذائية وهدايا، فيبدأ طقس فتوح التليس، بالاطلاع على محتويات ما جلبته عائلة العريس (5).

يقام الحفل الرئيسي في بيت أسرة العروس، وقد يكون "مكبرا" بالفرايجية أو الخيالة، بالإضافة إلى وليمة النهار، بحضور حفظة القرآن والمدعوين.

الرفـــود

بعد منتصف نهار اليوم الموالي، تغادر العروس بيت الأسرة ومن هنا مصطلح "الرفود"، أي حملها إلى عالمها الجديد، في لحظة مؤثرة بسبب الفراق وترقب المجهول.

لا تختلف زينة العروس كثيرا عن مثيلتها لدى العريس، إذ يشتركان في اللون الأبيض والسبنية الحمراء على الرأس (لون الدم)، إلا انها تنفرد بالقُبّة، التي تصنع من عصن مرن من شجرة العنب (الدالية)، يثنى على شكل قوس، ويثبت على الكتفين، وفوقه سبنية تسدل على الوجه إلى أعلى الصدر، من باب الستر من العين، بالمعنى المباشرة للرؤية البصرية، وبمعنى "عين السوء".

تُحمل العروس على فرس (عودة)، رمز النبل والخصوبة، فإن لم تتوفر، تحمل على بغل (وليس بغلة، لأنها عاقر). يتكلف بحملها من داخل البيت شقيقها الأكبر أو عم أو خال، يُجلسها على ظهر الفرس، ويركب خلفها ويمسك اللجام، وقد تسير أخت كبرى للعروس أو عمة او خالة خلف الفرس ممسكة ذيلها.

لإخراج العروس، تكون عائلة العريس ملزمة بتقديم هدية نقدية لإرضائها وتطييب خاطرها، من أجل مغادرة غرفتها.

وقبل إخراجها، يعمد شقيق أصغر لها إلى الاستيلاء على حذائها فيخبئه، ولا يظهره إلا بعد أن ينفح ببعض النقود (6).

ولنفس الغرض، وبينما تطلق الزغاريد وعبارات الوداع، قد يلجأ يافعون إلى التلويح بترديد أقوال تنذر بالشؤم. فأمام "راحَتْ لَلاّ مْعَ الَعْشي، الخير ف طْريقْها يَمشي، ومنّو ف دار ابّاها يبقى كُلشِي"، يبادر مشاغب أو أكثر إلى إطلاق: راحت للّا رايحا، دَسْحُتْ وذْجي طايْحا، فوق الدار دَمْحايْحا، ودَتْهَرّس مَ لْوايْحا، فيسارع البعض إلى إعطائهم نقودا ليصمتوا (لم يوجد شخص باسم محايحا!).

ينطلق موكب العروس مصحوبا بالفرايجية والطبل والغيطة، وأفراد الأسرة، باستثناء الأب عادة، وعلى طول الطريق، ينضم إليه أطفال ويافعون من أجل الفرجة.

في ساحة دار العريس، وقبل إدخال العروس، يُقدم إليها طبق (ميدونا) فيه كسكس وإناء ماء، ترش منهما في الساحة حبات وقطرات، من باب التيمن والتفاؤل بالخير والخصب بمقدمها إلى أسرتها الجديدة.

بعد ذلك، يحضر العريس ويفك حزام السرج (رمز لفك حزام العروس)، ثم يمر تحت بطن الفرس بسرعة، تحت صيحات وضربات أصدقائه، قبل أن تُحمل العروس من طرف شقيقها، الذي جاء راكبا خلفها، إلى بيت الزوجية (7) .

العـــــرس

إنه الحفل الأكبر، فبعد وليمة النهار ذات الطابع المضيافي والديني (صدقة)، يخصص الليل للاحتفال، بحضور المدعوين وعموم عشاق الفراجة من الدواوير المجاورة، وحتى من مناطق بعيدة.

يقف والد العريس في المراحوسط الدار، ويرحب بجميع الحاضرين في الداخل وفوق السطح، متمنيا لهم مناسبات أفراح مماثلة، ثم تنطلق الفراجة.

تأمين العرس ليس بالأمر الهين، لأن إفساد الحفلة يبقى واردا من طرف خصوم لصاحبها، أو من هواة "تَخْسارْ لَعْراسْ"، إذ يكفي قذف حجر إلى السطح أو وسط البيت، لينطلق الهلع وتعم الفوضى، لذلك يتطلب الأمر من صاحب العرس قدرا كبيرا من اللباقة والصرامة، وغالبا ما تتشكل مجموعات من أشخاص أقوياء، يراقبون المشبوهين ويقومون بجولات حول المنزل وفوق السطح لضبط الأمور

أما العريس، فيكون منشغلا بما ينتظره من "امتحان، سيُعز فيه أو يهان"!

في وقت متقدم من الليل، بعد انتهاء الحفل وانصراف المتفرجين، وبترتيب مع امرأة خبيرة، يدفعه الوزير في غفلة من الجميع إلى بيت العروس ثم ينسحب، وسط انتظار ضاغط للنتيجة.

بين نشوة الانتصار ونكسة الانكسار بالنسبة للأسرتين، بضع نقط دم فوق قطعة قماش أبيض.
بعد زغاريد وأهازيج اللحظة الحاسمة، يُحتفظ بقطعة الثوب (الدرّة) الثمينة، كشهادة إثبات على عفة المرأة وفحولة الرجل.
صباح اليوم الموالي، تحضر أم العروس وقريباتها محملات بفطور كامل (إسفنج، أرغفة، زبدة، بيض، دجاج...) للزوجة الجديدة لتهنئتها، وحيازة "الدرّة"، التي تثبت بعد ذلك على ساق قصب، وتعود بها الأم إلى بيتها في موكب من النساء والفتيات يتغنين على امتداد الطريق بـ"شرف" العروس وعائلتها.
خلال سبعة أيام، يعفى العروسان من إنجاز أي عمل داخل البيت أو خارجه، في ما يشبه أسبوع العسل، وفي اليوم السابع، تلبس العروس لباس يوم الزفاف وتحضر وجبة من التريد والدجاج بحضور والدتها، التي تشارك في فسخ شعرها وحزامها، إيذانا ببداية حياة جديدة ضمن عائلة ممتدة.
كان الاتجاه العام هو استمرار الابن بعد زواجه في العيش مع والديه، يستقر مع زوجته في حجرة بالمنزل، أو بجانبه، في حياة مشتركة، تحت السلطة الفعلية والمعنوية للأب، في إطار العائلة الممتدة. إلا أن التحولات الاجتماعية سارت في اتجاه الأسرة النووية، ولو أن الأبناء يستقرون في بيوت تبنى حول المنزل الأصلي، ما يؤدي، على المدى البعيد، إلى نشوء تجمع سكاني كبير في مدشر لأبناء العمومة.

حَبّـان الراس

الحُبّان، أو الحَبان، يعني التقبيل (البُوسان) في كلام البرانس، و"حبان الرأس" هو آخر مراسم الزواج، يتمثل في تقبيل الصهر الجديد رأسي والدي زوجته، وهو بمثابة طقس للصلح، ومدخل ضروري ليتمكن لاحقا من الالتقاء بهما والتعامل معهما بشكل طبيعي.
لكن قبل ذلك، عليه أن يجتاز اختبار كرسانا!
بعد فترة على العرس قد تقصر أو تطول، يُحضر الزوج رأسا من الغنم أو الماعز إلى بيت الصهر، وبمجرد الوصول تنحر الذبيحة أمام مدخل الدار، ويطلى الباب بدمها، في إحالة على الجذور العميقة لعلاقة التوتر والصراعات الدامية في القبيلة، التي تسوى بالصلح و"العار" بواسطة دم الذبيحة.
يجلس الأب والأم في بيت الاستقبال، وعلى عتبته (أزرداب) تنثر حفنة من حبوب كرسانا المدورة، وهي نبات لعلف الأبقار، كي ينزلق فيها الزوج عند الدخول ويقع أرضا.
ورغم أن المقلب يكون معروفا مسبقا، فإن الصهر يفتعل الانزلاق والوقوع، فينفجر الجميع بالضحك، بما يوفر للصهر فرصة القيام لمساعدته، فيقبّل الزوج رأس والد زوجته ثم رأس والدتها، ويزول الحرج ويحصل اللقاء (8).
لم يبق الآن أمام الزوج الجديد من طقوس، سوى أن يصحب زوجته إلى زيارة ضريح أحمد زروق في مقر سوق الاثنين بربع الطايفة، كي يأتي مولودهما الأول ذكرا، حسب الاعتقاد السائد عن "سيدي احمزروق، الركيزة دالبرانس، وعطاي لعزارا"...وفي ذهن أم المستقبل يولد حلم حمل الغربال لليلة زفاف إبنها.

هــوامـش

1 - في فرقة أولاد اجرو حالة إدماج بالزواج لشخص وفد بسبب القتل من بني خلاد (وربة) في مطلع القرن الماضي، زوجته واحتضنته عائلة في هسكوة الشرقية، باعتباره قوة إضافية. وفي دوار عين تلاثة، وافد آخر من أولاد أزم (إقليم تاونات حاليا) انحاز على عائلة ميسورة، وفقيه من صنهاجة وآخر من التول، انحازا إلى عائلتين أخريين بالزواج. وكل هؤلاء استقروا واندمجوا، ولم تعد أصولهم الأولى سوى ذكرى بعيدة.

2 - طقوس زواج البرانس تشبه كثيرا نظيرتها بقبيلة كَلاعة بالناضور . وأنجز رايمون جاموسRAYMOND JAMOUS الباحث الأنثربولوجي في دراسة حول قبيلة كَلاعة بالناضور تربط هده الطقوس بالنسق السياسي العام أي المخزن المركزي وسياسته اتجاه القبائل خاصة غير الخاضعة إذ يعمل المخزن بقيادة السلطان على توظيف القوة والشرف والبركة من أجل السيطرة وما يتبعها من فرض سلطته وتغريم للقبائل وجعلها تساهم بالمال و الرجال في الحملات العسكرية للسلطان ضد القبائل الاخرى .
وهذه الطقوس تمكن العريس "مولاي السلطان "كذلك من غزو تدريجي لمواقع اقتصادية واجتماعية ومعنوية وسياسية ، كانت محرمة عليه سابقا وهوعزري .وبفضل الغرامة يستطيع تحقيق استقلاله المادي وبفضل الدم والسهر على حماية الشرف ،يساهم في استمرار العائلة عبر النسل وبعد وفاة الجد والأب يحتل موقع القرار بالجماعة أي مجلس الدوار ...
انظر : **RAYMOND JAMOUS**

HONNEUR ET BARAKA **, les structures sociales traditionnelles dans le rif.**

Éditions de la maison des sciences de l homme. P : 243-284. Paris france .1981

وحول العائلة والزواج عند البرانس انظر كذلك :

TRENGA : ***LES BRANES***…**Les archives berberes.1915-1916.éditions-diffusion AL KALAM P :418-422.Année :1987. RABAT**

3 - في غياب والد الفتاة أو أقارب مباشرين لها، قد يتكلف بتزويجها كفيل أو ولي، بناء على قرابة بعيدة، أو بحكم موقعه الاجتماعي والاعتباري.

4 - من الحلي التي كانت أساسية:

- **الخلخال**: مثل الدملج، لكنه غير متصل ليثبت بين أسفل الساق وأعلى الكعب.
- **الشباك**: قطع نقدية قديمة من الفضة مشبوكة بخيوط، توضع في العنق وتتدلى على الصدر.
- **الحصارة**: قطع من الفضة توضع على الجبين وتثبت خلف الرأس.
- **الـزّم**: من الفضة والعقيق يربط مع ضفائر الشعر.
- **المجدول**: حزام من الحرير وبه كويرتان من النحاس، يلف حول خصر العروس.

5 - **التليس**، نسيج من شعر الماعز وقليل من الصوف، مزدوج الاستعمال، في الشتاء يستعمل غطاء، وفي الصيف، يخاط من الوسط، وتحمل فيه الحبوب على ظهر الدواب.

6 - يحيل امتناع العروس عن مغادرة بيت أهلها وسرقة البلغة على تمسك العائلة بابنتها، مع اختبار قدرة أهل العريس على مدى استحقاقهم لها.

7 - تشمل طقوس الوصول وضع العروس خبزة تحت إبطها، والمرور تحت ذراع أم العريس الواقفة بالباب، كتعبير عن الاحترام والخضوع لسلطة الأم.

8 - في دوار عين تلاثة (فرقة أولاد اجرو) حصلت حالة رجل لم ينجز هذا الطقس، فظل لا يرى صهره خلال حوالي عشرين عاما، رغم أن الزوج، الذي كان بناء، بنى لصهره بيتا، وكان كلاهما يتفادى الآخر، إلى أن أدركت الأب الوفاة.
قد ينتهي حفل "حبان الراس" بإهداء الأب لابنته عجلة او نعجة لكسبها، وتحقيق حد أدنى من الاستقلال الذاتي في بيتها الجديد، تحت مراقبة أسرة الزوج.